الحياة
AL HAYAT
السبت ٢٨ حزيران (يونيو) ٢٠٠٣ الموافق ٢٨ ربيع الثاني ١٤٢٤هـ/ العدد ١٤٧٠٥
AL HAYAT SATURDAY 28 JUNE 2003 ISSUE NO 14705

ظاهرة عمرو خالد ... داعية «أولاد ذوات» باحثين عن معنى

□ إنحسر حضور عمرو خالد وضاقت به المحطات التلفزيونية والمنابر الاعلامية عموماً، لكنه ترك وراءه ظاهرة تستحق الدرس، لا سيما انه استقطب جمهوراً ما وجذبه، أي انه جاء يرد على حاجات معينة، قائمة، أو نجح في توليدها.
فما هي هوية الجمهور الذي حام حوله؟

عايدة الجوهري *

■ منذ دخوله عالم الوعظ الديني عام ١٩٩٧ أثار الداعية الاسلامي عمرو خالد، الذي «يُبكي البنات ويقفل الطرقات»، ردود فعل متناقضة، تناولت شكله، أسلوبه، طقوسه، مظهره، مضمون خطابه: قديم أو جديد، متطور معصرن او تقليدي منظم وممنهج، واضح الأهداف والوسائل او عشوائي، يغامر في تحليلاته واستدلالاته واجتهاداته، ويتفوه بآراء كثيرة لا يُدافع عنها، الى ما هنالك من الثنائيات.

تفتح ظاهرته على مجموعة من المقاربات تتناول المضمون والشكل، الشكل الذي يتحول الى مضمون، المعتمد عموماً على السرد والمسرحة وعلى الحوارات وأسلوب «التوك شو»(١)، وعلى شكله، المتروشن، كما يقول المصريون وهي تعادل Branche في الفرنسية، أي المواكب لروح العصر والموضة، فهو لا يشبه بشيء مظهر الشيخ التقليدي، وهو فوق ذلك يهوى كرة القدم، ويرتاد ملاعب الكرة، متزيناً بنظارات شمسية.

ولكن، اذا انطلقنا من مبدأ ان الظواهر الاجتماعية تنتج نظامها القيمي الأخلاقي، اي ما يسمى البنية الفوقية التي تشرعها وتبررها وتروج لها، فإننا نجد ان موقع عمرو خالد الاجتماعي، وهو سليل عائلة ارستقراطية، والده كان طبيباً في رئاسة الجمهورية ووالدته حفيدة أحد وزراء الملك فاروق، سيؤثر في مكونات خطابه كما في المنابر التي سيعتليها: جوامع منطقة المهندسين، والمعادي، ومدينة ٦ اكتوبر، وهليوبوليس، ونادي الصيد البورجوازي الذي شهد انطلاقته، وامتد نفوذه الى جامع «المغفرة» في العجوزة، الى ان اقلقت «فتوحاته» الاجهزة الأمنية التي نصحته بالهدوء والتروي بحسب ما يشاع، فجاءت قضية اعداده رسالة الدكتوراه بمثابة غطاء ملائم لانسحابه من الشارع المصري.

مجمل أنصار عمرو خالد من أبناء رجال الأعمال (طبقة الانفتاح) والطبقة الوسطى، وهؤلاء يبحثون عن لغة وأسلوب يتناسبان وحياة الدعة التي يحيونها، كما عما يمنح معنى لحياتهم.

وبالتالي فإن خطاب عمرو خالد يتشكل من هذه البيئة ويكيف مضامينه مع توقعاته، فهو ينطلق من الثراء كأمر واقع وإلهي، وان التوبة غير متعذرة، ولكن ينصح هؤلاء بعدم التبذير وعدم الاستعراض وبالقيام بأعمال خيرية. ونجد اصداء لاتجاهات خطابه في خطبة «الشباب والصيف»، وهي تذكر بعنوان فيلم مصري «البنات والصيف» وقد شملت، اضافة الى ارشادات تتعلق بالسلوك على الشاطئ، طالما موضوعها الصيف، نصائح وإرشادات اخلاقية تعلم الموسر كيف يجد بعداً روحياً لثرائه.

يكيف خالد خطابه مع هذا الواقع ويتعاطى مع الثراء كمعطى طبيعي وإيجابي فيقول: «أريد ان اكون ثرياً كي ينظر إليّ الناس ويقولوا هذا رجل غني متدين، وسيحبون ربنا من خلال هذا الثراء. أريد ان يكون لديّ المال وأجمل الأثواب كي أحبب الناس بدين الله».

ليس عمرو خالد الداعية الوحيد الذي يلهث وراء الثروة، فهناك شيخ آخر يرى ان الشيخ خالد استطاع ان يجمع ثروة خيالية في سنوات قليلة بفضل وعظه وعلاقاته مع المتمولين والنافذين. (راجع مجلة «الكشكول» اللبنانية عدد شباط/ فبراير – آذار/ مارس ٢٠٠٣).

وفي مواجهة الرأي العام الشعبي الناقم على اثرياء الانفتاح، او ما يسمى القطط الثمينة، كمستغلي ثروات البلاد، يقدم عمرو خالد الثراء كوسيلة للتقرب من الدين «أريد ان أملك مالاً كي أستطيع دعوة الناس الى وجبات الافطار»، في عرفه يتيح المال للمسلم ان يقوم بواجبات دينه: «أريد أن اكون ثرياً كي استعمل مالي في طريق الله وكي أحيا حياة كريمة»، وفي المقابل يفسر الفقر بأنه غضب إلهي تجاه من ارتكب خطيئة «إذا نظرت الى الشروط الاقتصادية البائسة التي يحيا فيها الناس، سترى انهم ارتكبوا خطيئة ما». الرسالة واضحة: التفاوت الاجتماعي ليس صنيع سياسات اقتصادية بل محصلة الارادة الإلهية، وهو حين يشرّع الغنى والثراء يتحفظ عن استعراض الثروات لئلا يغضب الفقراء: «لو مشينا قليلاً بدل ان نركن عرباتنا جنب الجامع، ونثير غضب الناس، كان احسن». كما انه ينتقد أولئك الذين يبدلون اجهزة الخلوي سعياً وراء الأحدث ما يدل على هوية جمهوره، (يحكى عن دور عمرو خالد في تحجيب الفنانات اذ انه على رغم شكله العصري المتهاون يصرّ على حجاب النساء ويستنكر على المحجبات اقدامهن على التجمل والتزين، وقرأت مقالاً له في احدى الصحف المصرية التي لا يزال يراسلها من غربته في هولندا: «حرام أن يقول الرجل لإمرأته أنا بعبدك») وآخر ضحايا دعواته ممثلة مصرية ناشئة حققت نجاحاً متميزاً: حلا شيحا(٢).

هذا العرض يقودنا الى استدلالات تتطابق مع استدلالات الباحث المصري في الشؤون الاسلامية نبيل عبدالفتاح الذي يقول ان عمرو خالد يقدم ايماناً بسيطاً، يفتقر الى البلاغة التقليدية والخشبية، ويصف اسلام عمرو خالد بأنه اسلام شعبوي لا يتصدى للقضايا الاعتقادية والتشريعية بل يؤكد التوبة الدائمة الميسرة بمجرد دوام ذكر الله، والاستغفار، ومكارم الاخلاق. ويُشبه «عبدالفتاح» اسلوبه التبسيطي بالـFast Food وموسيقى البوب، وعن جمهوره: «ينتمون في معظمهم الى الطبقات الوسطى او البورجوازية وأبناء طبقة الانفتاح ورجال الأعمال، وفيهم من يحتاج الى مشروعية ما، لتغطية ما قاموا به من خروج عن القانون، ومنهم من يبحث عن معنى في غياب مشروع سياسي وثقافي اجتماعي، انه البحث عن المعنى».

تعلمنا ذات يوم ان اصول الاخلاق ليست أزلية وثابتة. فهي تتغير مع التطور التاريخي للمجتمع. فما يُعترف بأخلاقيته في بعض الظروف التاريخية يمكن ان يستنكر اخلاقياً في ظروف اخرى. مثلاً، إبادة القبائل والشعوب من المستعمرين في عصر السيطرة الاستعمارية بررها الاستغلاليون اخلاقياً. واليوم تشجب كل الشعوب الاستعمار كأقبح ما يكون عليه الشر الذي يجب القضاء عليه الى الأبد.

كما تعلمنا ان الأخلاق في المجتمع المقسم الى طبقات ذات مصالح متضاربة تكون طبقية دائماً، اي انها تخدم مصالح هذه الطبقة الاجتماعية او تلك، هذه الفئة الاجتماعية او تلك. فللكادحين اخلاقهم كما للاستغلاليين اخلاقهم، الا انه تسود في المجتمع تلك الأصول الاخلاقية التي هي مرضية ونافعة للطبقات الحاكمة.

(١) الأسلوب التواصلي الحواري، هو أسلوب تربوي محمود، يجعل المتلقي شريكاً في العملية التربوية، ويعتبر امتداداً لأسلوب الشيخ محمد متولي شعراوي، فهو يحقق اندماجاً وتفاعلاً بين عناصر المجموعة، وبهذا يختلف عن أسلوب الشيخ التقليدي الذي يتحدث بلغة فوقية، هي كناية عن مونولوج، يقوم على استعمال لغة بيانية جامدة جلها يقوم على الترهيب والترغيب.

(٢) في لقاء معه عبّر والد حلا شيحا وهو فنان تشكيلي مصري عن ذهوله لما جرى لابنته التي تتمتع بديناميكية مذهلة ومثلت حتى الآن خمسة أفلام لاقت نجاحاً استثنائياً وهي في الـ٢٣ من عمرها، والتي تحجبت واعتزلت الفن بناء على مواعظ عمرو خالد.

* كاتبة لبنانية.

طريق السلام كيف يبدو مقطوعاً دائماً بين العرب وإسرائيل

منذر الدقاق *

■ عام ١٩٥٥، تحدثت في محاضرة في النادي العربي في دمشق، ثم في محاضرة في نادي الطيران الشراعي عن «الصهيونية في السياسة الأميركية» وأوضحت ان اسرائيل لا تريد السلام لأنها تعيش من خلال الحرب، وان سعى العرب الى السلام معها سيرون كيف تهرب من السلام. وكتبت ثانية عن سراب السلام مع إسرائيل «السلام مع إسرائيل: سراب» («الحياة» ١٨/٤/٢٠٠٠) حين كانت المفاوضات في أوجها.

وما زالت الأحداث تؤكد ان السلام ممنوع عن العرب وان اسرائيل خلقت لتأمين عدم استقرار دائم في الشرق الأوسط تستفيد من خلاله القوى الاستعمارية الحديثة لوضع يدها على ثروات المنطقة الاستراتيجية.

في نشرة طبعها وعممها ليندن لاروش المرشح للرئاسة الأميركية عام ٢٠٠٤، كان صريحاً في فضح السياسة الأميركية وأهدافها البعيدة، وقد أطلق على القائمين على السياسة الأميركية «أولاد الشيطان» عارضاً الغايات الصامتة للهيمنة الأميركية الحديثة.

ومن يتابع الأحداث خلال الشهور الأخيرة يتساءل عن وجود قوى سياسية خفية تعمل في الظلام على تخطيط الأحداث المأسوية التي تعصف في بلدان الشرق الأوسط، والتي لا تأتي من تنظيم اقليمي لا يملك القدرة العلمية والفنية لتحقيق ما قام به، وأحداث ١١ أيلول (سبتمبر) نموذج لهذه الظاهرة السياسية التي أخذت بلدان العالم الى مسيرة جديدة خانقة، شعارها الإرهاب.

قوى تعمل في الظلام تخطط وتنفذ ما لا يريده العالم والإنسانية والإسلام طبعاً، لتضعف الحق العربي وتغطي على جرائم الصهيونية في فلسطين وتوجه الأنظار عن اسرائيل وتدفع الأهداف الصهيونية الى الأمام.

وما الانتحارات الجماعية وقتل الأبرياء في نيويورك وواشنطن وإندونيسيا والسعودية ومراكش سوى ظاهرة غير عادية، غير عربية وغير إسلامية لا تخدم الحق العربي في أي شكل من الأشكال. وقد يتساءل المرء كيف يمكن أن تتم هذه اللعبة في خضم هذا التناقض الكبير بين تنفيذها بأيد عربية وتخطيطها من وراء ستار.

وكما أوضحنا، فإن الترتيبات الفنية العلمية السرية جداً في تنفيذ أحداث ١١ أيلول تتخطى الكثير من الطاقات العربية مهما تطورت ولا بد لها من قدرات فنية عالية خاصة...

وحتى الانتحارات الجماعية التي تقتل الأبرياء من مسلمين وغير مسلمين، لا بد من أن تكون وراءها قوى شريرة غير مسلمة تتستر ظاهراً بالاسلام لتدفع أصحاب العقول الساذجة نحو هذا العنف الذي لا يحقق اي منطق أو انسانية، ويقدم الأذى للإسلام، ولا يخدم الحق العربي بل يمعن في التحريض على إيذائه.

وقصة حرب العراق ظاهرة جمعت بين الغباء السياسي لنظام صدام والتخطيط الخبيث لقوى الشر الخفية، ولقد وقع العالم بين نارين: نار الحكم العراقي الديكتاتوري، ونار الاستعمار الاميركي الحديث الذي يعمل على السيطرة على النفط من خلال تحرير العراق من النظام الأرعن، الذي قدم أكبر خدمة لأميركا في وجوده وفي سقوطه السريع المريب.

وعن «خريطة الطريق» فإن الخلاف الكبير الذي دبّ في الأوساط الصهيونية حول استعمال شارون كلمة (احتلال) الأرض الفلسطينية، والسخط الذي ردده البعض من وزرائه من أن الفلسطينيين يحتلون أرض إسرائيل لا العكس، ليس سوى دلالة واضحة على النيات الصهيونية الحقيقية تجاه طبيعة السلام. نشهد إصرار إسرائيل على متابعة إرهابيها الفلسطينيين، وكلما لاحت في الأفق علامات الهدوء، تصطنع القتال والقتل والتدمير من جديد لإثارة المقاومة الفلسطينية... وتوحي بالرد وعندها تصرح: انهم لا يريدون إيقاف العنف. وهو الممنوع عن الفلسطينيين تدعي عندما تمارسه انه (دفاع عن السلام!).

وما قبولها المخادع الخجول لـ«خريطة الطريق» سوى تمويه لتفادي ثورة الرأي العام العالمي على عنادها التقليدي بالرفض. بقي عليها الآن أن تماطل وتخادع وتطلب التعديل تلو التعديل حتى تتم مرحلة إعادة انتخاب بوش وعندها تقتلها. تقوم الآن اليد اليسرى للسلام أما اليد اليمنى فهي على زنات آلتها الحربية تتابع التدمير بحجة (الدفاع عن النفس)، وهي تريد الأمن لشعبها وترفض ان تقدم الأمن للشعب الفلسطيني.

كنا لاحظنا جيداً التردد الاسرائيلي الواضح في قبول «خريطة الطريق» قبل إعلانها، وهي زودت واشنطن بأربعة عشر تعديلاً تقتلها في مهدها، وقرأنا في صحيفة «الهيرالد تريبيون» لمدير السياسة الخارجية لمعهد اسرائيل الديموقراطي في القدس (أوري درومي) كيف ان شارون يناقض نفسه من خلال قبولها، وهو الذي زرع الضفة الغربية وقطاع غزة بالمستوطنات التي هي ابنه (الغير الشرعي) والتعديلات التي يطلها تترك الدولة الفلسطينية المقترحة عام ٢٠٠٥ جزراً في أرض اسرائيل الجديدة الواسعة. ولن يجرؤ بوش على معارضة شارون لأنه لا يريد أن يرتكب خطأ والده عام ١٩٩٢ الذي عاكس جزئياً اللوبي الصهيوني في واشنطن، فكان أن فقد التجديد لرئاسته.

لا يملك الرئيس بوش، الذي يطرح «خريطة الطريق»، الرصيد المطلوب لإعادة انتخابه عام ٢٠٠٤، ويخشى أن تضطرب أمور التجديد اذا ما خالف اللوبي الصهيوني المهيمن في واشنطن، من خلال إصراره الظاهري على قيام الدولة الفلسطينية عام ٢٠٠٥، مما يجعل هذا التاريخ في مهب الريح، لأنه يأتي بعد عام ٢٠٠٤ تاريخ التجديد المطلوب للرئيس بوش، وستجد المؤسسات الصهيونية، اذا ما وافقت على التجديد ألف عذر بعد عام ٢٠٠٤، لعرقلة إقامة الدولة المقترحة في «خريطة الطريق»، وسنرى مهزلة سياسية جديدة بعد أن تم قتل مؤتمر مدريد عام ١٩٩١ ثم اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣.

في آذار (مارس) ١٩٧٩، خلال زيارة طبية علمية لبغداد والموصل، وجه صدام حسين الدعوة لوفدنا للاجتماع به في نقابة أطباء بغداد. وبعد أن استعرض في ربع ساعة أوضاع الشرق العربي، أحب أن يبادلنا السؤال والجواب. وكنت أول من طرح عليه هذا السؤال (إن الصهيونية العالمية تخطط للشرق العربي وللعالم أجمع، الحاضر والمستقبل. ألا تجد كرئيس مسؤول، أنه من الضروري أن تعمل الدول العربية على إقامة مؤسسة أو هيئة أو لجان تحوي أصحاب الخبرة والعلم والمعرفة، وأكرر: تحوي أصحاب الخبرة والعلم والمعرفة، تجتمع حول طاولة وتخطط لهذه الصهيونية التي تخطط للبلاد). وطلب مني أن أكرر السؤال ففعلت. وصرخ أحد الزملاء المرافقين: انه سؤال عميق. إلا أن سؤالي بقي من دون جواب خلال الرد الشامل لصدام حسين عن التساؤلات التي أطلقت.

* أستاذ في كلية الطب – جامعة دمشق.

قوى عراقية كثيرة تراجع مواقفها

نهاية شهر العسل الأميركي - الكردي

علاء اللامي *

■ تلاشت مشاهد الاستقبال الكبير والاحتفالي الذي أعدته الأحزاب الكردية في شمال العراق (كردستان) لأول حاكم أميركي للعراق، الجنرال جاي غارنر، وحلت محل تلك المجاملات، التي بلغت حداً جعل جلال الطالباني رئيس حزب الاتحاد الوطني الكردستاني يقترح على غارنر الإقامة الدائمة في «بلده الثاني» كردستان حين يبلغ السن التقاعدي، حالة من الجفاء والحذر والانسحاب من الميدان شبيهة كثيراً بحالة المقاطعة غير المعلنة للحاكم المدني الأميركي الجديد وخليفة غارنر بول بريمر. فما الذي حدث ويحدث في حقيقة الأمر؟ وهل هناك مشكلة أو أزمة عميقة في العلاقة بين الجانبين، دفعت بشهر العسل الكردي – الأميركي إلى نهايته القاتمة؟ أم إن الأمر لا يعدو كونه حالة عابرة من سوء الفهم بين حلفاء طريق طويل ؟

لقد راهنت الأحزاب الكردية مبكراً، وبعد تردد لم يدم طويلاً، على المشروع الأميركي للتغيير في العراق من طريق الحرب، وقد بذلت تلك الأحزاب (يتعلق الأمر في الحقيقة بحزبين كبيرين هما الاتحاد الوطني والديموقراطي، تلتف حولهما مجموعة متنوعة من الأحزاب الحليفة الصغيرة) جهوداً كبيرة لتأكيد عمق تحالفها مع الإدارة الأميركية واندراجها في مشروعها الاستراتيجي. وفهمت القوى الكردية مبكراً جداً أن وزنها السياسي إقليمياً لم يعد يعتد به لأسباب كثيرة منها: التحالفات الهشة والمتشابكة التي عقدتها مع جميع الدول الإقليمية، إضافة إلى انها لم تكف قط عن التفاوض السري وشبه السري حتى مع نظام صدام حسين ولفترة قصيرة قبل سقوطه، ما جعلها تعاني من حالة مستمرة من تآكل وزنها السياسي على الأرض ترافقت مع تحولها إلى طرف مستهدف من حلفاء الأمس الإقليميين بعد احتلال بغداد، وليس لها من مظلة تحتمي بها في الوقت الحاضر غير تلك التي يتأبطها بريمر.

ولعبت التصريحات والوعود الأميركية السخية نحو الأكراد وطموحاتهم وحقوقهم في فترة ما قبل الحرب دوراً فاعلاً في تسريع قيام تحالف مهم وراسخ بين الطرفين. ومعروف أن تلك التصريحات الأميركية السخية، وخصوصاً تلك التي ترددت أصداؤها في ردهات «مؤتمر لندن» للمعارضة العراقية والمؤتمرات والاجتماعات السياسية التي تلته، لم تقفز، أميركياً، على الخط الأحمر الإقليمي والمتمثل برفض فرض نظام الحكم الاتحادي (الفيديرالي) في العراق من طرف واحد ومن دون استفتاء شعبي يقره أو لا يقره. ويبدو ان علينا أن نضع يدنا على هذا العنصر من عناصر الدفع باتجاه حالة الأزمة الراهنة ولكنه لن يكون العنصر الأهم أو الأوحد.

غير أن الأحزاب الكردية استمرت في تعاونها وتعاملها الإيجابي مع الإدارة الأميركية وممثلها الجديد في بغداد، ونفذت ما أنيط بها من مهمات أمنية وسياسية كثيرة على رغم العديد من الثغرات والانتكاسات، على غرار عمليات طرد العراقيين من أصول عربية من مدن وقرى عدة في المناطق الشمالية أو تلك المحاذية للمناطق ذات الغلبة الديموغرافية الكردية. ثم جاءت الانتكاسة الأكبر في العلاقات بين الجانبين حين طوى بريمر وعود ومخططات غارنر وزلماي خليل زاده بإقامة حكومة عراقية موقتة وانتقالية، وسحب البساط من تحت أقدام الجميع في الحالة السياسية العراقية التي تشكلت بعد سقوط بغداد ليقدم لهم بديلاً منه نسخة غامضة من «مجلس عراقي للمستشارين». وتزامن ذلك مع استصدار الولايات المتحدة قراراً جديداً من الأمم المتحدة تقر فيه بأنها قوة احتلال في العراق وتتحمل مسؤوليات الدولة المحتلة، ولكن أيضاً تتمتع بحقوقها كطرف منتصر.

إلى هنا والمصيبة عامة كما يقال وليست خاصة بالأكراد فقط، ولكن لماذا بادرت الأطراف الكردية إلى الانسحاب السريع والمفاجئ واختفت من الساحة اختفاء شبه تام؟ هل هناك مخاوف أخرى تمليها الحالة الجيوسياسية على الأرض وتصاعد العمليات العسكرية التي تستهدف القوات الأميركية؟ أم هي حركة استباقية اضطرت إليها الأحزاب الكردية تحسباً لما قد يلجأ إليه بريمر في حالة حدوث انهيار شامل أو تمرد شعبي واسع في المناطق الكردية؟ يمكن النظر بواقعية إلى هذا الاحتمال في ضوء بوادر وإشارات كثيرة على حدوث ذلك التمرد الشعبي. فمنذ فترة ليست بالقصيرة تعاني المناطق التي تسيطر عليها الأحزاب الكردية في الإقليم من مشكلات أمنية كثيرة اضطر معها بعض المسؤولين الكبار للتدخل في محاولة لوضع حد لحالة الانفلات، كما حدث حين تدخل جلال الطالباني علناً وعبر أجهزة الإعلام وطالب أجهزته بمنع تحول مدينة السليمانية التي تسيطر عليها، إلى قاعدة وتجمع ضخم للسيارات والآليات المسروقة من شتى أنحاء العراق. وهناك أيضاً أزمة سيولة مالية تعاني منها المؤسسات الرسمية، منعتها من صرف مرتبات العمال والموظفين لأشهر عدة، اضافة الى كساد تجاري متفاقم.

ولكن ما الذي يمكن أن يلجأ إليه بريمر من بدائل في حال إصراره على اعتماد خيار الحكم المباشر للعراق ورفض مشاركة الطبقة السياسية العراقية عموماً، والكردية خصوصاً وهي التي احتفظت حتى الآن بعلاقات ودية مع الإدارة الأميركية الحالية؟ هل يداخل الأحزاب الكردية شعور بالقلق من لجوء الحاكم الأميركي الى رفع السوط التركي في وجه أية حالة رفض أو تمرد على مشروع الاحتلال والحكم المباشر؟ هذه كلها أسئلة تستشرف آفاق الحالة الراهنة للعلاقات بين الإدارة الأميركية وحلفائها العراقيين في ما كان يسمى قبل الاحتلال «المعارضة العراقية» عموماً وبالأحزاب الكردية العراقية تحديداً.

لقد مَثَّلَ جاي غارنر مرحلة أولية لها ظروفها الخاصة لتأسيس شكل من أشكال إدارة الأوضاع العراقية لفترة ما بعد سقوط بغداد، ولهذا كان خطابه وحركته السياسية اليومية وطبيعة علاقاته محكومة بتلك الظروف الخاصة التي اتسمت بالانفلات الشامل والفوضى المعممة.

إذا كان غارنر يُمني العراقيين بحكم «وطني» خلال بضعة أسابيع صارت قبل رحيله بقليل بضعة أشهر، فإن الحالة العامة ومع انقضاء أسبوعين على قدوم بريمر انقلبت إلى شيء آخر ومختلف تماماً، اذ أعلن هذا الأخير صراحة عن مشروعه للحكم المباشر بمساعدة مجلس من «المستشارين العراقيين» فيما راحت مصادر الخارجية البريطانية تتحدث عن احتمال أن يطول بقاء القوات البريطانية في جنوب العراق لأربعة أعوام.

واضح أن الصورة مشوشة لدى جميع الأطراف ما عدا الطرف المقرر والمخطط وهو الطرف الأميركي، وستضطر القوى السياسية العراقية، التي كانت وما زالت صديقة للأميركيين إلى مراجعة برامجها وشعاراتها بهدف الخروج من هذا المأزق الذي دُفعت إليه دفعاً بأقل الخسائر. فلا أحد يفكر بعد الآن ببطر الحصول على الأرباح.

أما القوى السياسية العراقية التي ناوأت الوجود الأميركي وقابلته بالعداء منذ البداية ولكنها لم تدعُ إلى المقاومة العنيفة ضده واكتفت حتى الآن بالدعوة إلى المقاطعة أو الامتناع عن التعاون، فستراجع هي الأخرى برامجها وشعاراتها وتنتقل بسرعة تتناسب وكثافة الأحداث السياسية والأمنية والاقتصادية وإيقاعها، إلى طور آخر من أطوار التعامل مع الوجود الأميركي. وسيكون منطق هذه القوى مدعماً بحجج قوية وعوامل تفعيل كثيرة وفرتها النقلة السياسية الخطيرة التي جسدها بريمر في مشروعه للحكم الأميركي المباشر للعراق .

في هذه اللوحة المتشابكة والسريعة التشكل والتغير، ستواجه القوى والأحزاب الكردية العراقية استحقاقات مهمة، لبعضها طابع تاريخي ورئيسي. ولكي تقوم تلك القوى والأحزاب بأداء ما عليها من واجبات ومسؤوليات، يلزمها أولاً وقبل كل شيء التخفيف من غلواء رهاناتها السياسية على الخارج، وخصوصاً ان تلك الرهانات أضحت خاسرة باعتراف الجميع، وهذا بدوره يستلزم تغير بوصلة الرهانات والتحركات السياسية ودفعها نحو العمق العراقي الاستقلالي عموماً والكردي خصوصاً، والتخلي عن منطق فرض الأمر الواقع والاستقواء بالآخر القوي، وخصوصاً في ما يتعلق بمشكلات الحكم وشكل الدولة العراقية التي تشترط الأحزاب الكردية أن يكون اتحادياً فيديرالياً قسرياً ومن دون أن يكون للشعب العراقي رأي في هذا الموضوع الذي يهم حاضره ومستقبله.

إنها أزمة عميقة بين أطراف الحالة العراقية إذاً، وهي أزمة مفتوحة على احتمالات تنذر بتحولات وتغيرات كبرى، ويخطئ خطأ استراتيجياً من يتصور أو يصور لجماهير الكرد العراقيين التي تعرف دقائق تاريخها جيداً، أن ما حدث هو مجرد سوء فهم عابر ستعود بعده المياه إلى مجاريها.

* كاتب عراقي.

ألف وجه لألف عام

توماس بيكيت في رواية لكونراد ماير: الذات ام التاريخ؟

■ كثيراً ما سحرت حكاية توماس بيكيت مؤلفي القرن العشرين، من مسرحيين وروائيين، الى درجة ان واحداً من كبار هؤلاء، الشاعر والناقد ت. إس إليوت، خصه بواحد من افضل نصوصه: مسرحية «مقتلة في الكاتدرائية» وإلى درجة ان جان آنوي، الكاتب الفرنسي الشديد الكاثوليكية الذي ما عُهد خارجاً، في اعماله المسرحية، بإفراط عن مواضيع فرنسية، خصه هو الآخر بمسرحية تعتبر اشهر ما كتب ونقلت الى شاشة السينما في الستينات، وهي مسرحية «بيكيت، أو «شرف الله» التي كتبها في العام ١٩٥٩، بعد ربع قرن من صدور مسرحية إليوت. وتوماس بكيت هو، في القرن الثاني عشر الإنكليزي، كاتب ومفكر صار اسقفاً لكانتربري ومستشاراً لملك انكلترا هنري الثاني، قبل ان يضطهد ويعدم، ظلماً ولصواب رأيه المخالف رأي سيده، ويتحول بعد ذلك الى واحد من قديسي الكنيسة المسيحية. ولئن كان كتّاب في القرن العشرين، الذين كان همه البحث عن بطولات فكرية ليعيد إليها الاعتبار، فتنوا بحكاية توماس بيكيت وحداثة افكاره ومواقفه، فإن كاتباً سويسرياً– باللغة الألمانية – كان سبقهم الى بيكيت بأكثر من نصف قرن، راوياً حكايته مقدماً حياته وأفكاره عبرة لمن يعتبر. وهذا الكاتب هو كونراد فرديناند ماير، الذي – من دون ان يكون كاتباً مبدعاً ومبتكراً للمواضيع – عرف كيف يجعل لنفسه في عالم الأدب، وبفضل كتاباته الغزيرة، مكانة اساسية في زمنه، وإن كان يبدو منسياً بعض الشيء في ايامنا هذه.

● يفتتح كونراد ماير روايته، وعنوانها «القديس» بشخصية مبتكرة هي شخصية هانز، السويسري الذي عاد الى بلاده بعد فترة طويلة من الزمن قضاها في خدمة ملك انكلترا، اواخر القرن الثاني عشر. وهانز هذا إذ يجابهه وهو في زيوريخ خبر تطويب توماس بيكيت قديساً من الكنيسة الرومانية، يقول لمن اجتمعوا من حوله متسائلين عن خلفية هذا كله، في الفصل الأول من الرواية: «اعطوني، يا اصدقائي، بعض الوقت فأحدثكم عن الإنسان الأكثر استثنائية الذي عرفه هذا الكون... عن النموذج الإنساني الذي يجدر بنا ان نحتذيه». وسنعرف على الفور ان هانز تعرّف إلى بيكيت حقاً في بلاط الملك وعرفه عن كثب.

● وإذا كان التاريخ الحقيقي أبقى لنا من حكاية توماس بيكيت صورة الرجل السياسي الذي ابدى كل النباهة وهو يخدم العرش في بلاده، والذي مان إن عيّنه مليكه على رأس الكنيسة في هذه البلاد، حتى أدار له ظهر المجن لأسباب تتعلق بنزاهته ومبدئيته، فمات مقتولاً بتحريض من ذلك الملك، فإن الكاتب كونراد ماير، يقدم صورة اخرى تبدو متناقضة الى حد ما، مع الصورة التي يصفها بطله هانز، المؤكد ان بيكيت إنما هو رجل العصر.

● ذلك ان ماير يقدم المفكر الثائر في روايته «القديس» كرجل معزول وحيد. إنه رجل تسيّر ظروف العصر والأوضاع السياسية كينونته وأفكاره حقاً، كما تفعل ذلك العلاقات الاجتماعية، لكن افكاره ومبادئه ومواقفه تبدو طالعة من داخل ذاته يمليها عليه ضميره ووعيه الخاصان. والسؤال الأساس الذي ينبع من هذا كله، والذي تحاول هذه الرواية ان تجيب عنه، على طريقتها هو: كيف يمكننا ان نفسر انقلاب توماس بيكيت على ملكه وسيده وراعي نعمته، ما إن عيّن رئيساً لأساقفة كانتربري؟ ان الجواب، او التفسير الذي يحاول ان يكون منطقياً بالأحرى والذي تقترحه علينا الرواية هو الآتي: بالنسبة الى كونراد ماير مهما كان من شأن دوافع بيكيت ليتصرف كما تصرف، هناك خلفية واحدة لهذا كله: إن الإنسان، ومهما كان سموه وسمو أفكاره، كائن يفاجئ ولا يمكن ابداً، لنا، ان نزعم ان في إمكاننا توقع ردود فعله على اي امر كان. ومن هنا فإن هذه الرواية المدهشة، لا تحاول ان تقول تاريخية الحدث، بمقدار ما تقول نظرة مؤلفها الى الإنسان. لأن المهم هنا ليس موقف بيكيت، الذي قاده الى الاستشهاد ثم التطويب، بل كونه انساناً يملي عليه وعيه الخاص، والمتغير، تصرفاته مهما كان الثمن. وفي هذا الإطار علينا ان نلاحظ، مع دارسي عمل ماير هذا، ان الكاتب، الذي كان يعتبر نفسه مفكراً ومؤرخاً في الوقت نفسه، لا يسعى الى تفسير او تبرير المواقف التي يتمسك بها بطله، انطلاقاً من الظروف الاجتماعية الراهنة، بل انطلاقاً من قناعات انسانية راسخة في داخل الشخصية، ما يجعل «بيكيت» ماير، انساناً يقف خارج الزمن، وبالتضاد مع صورته لدى إليوت وآنوي مثلاً، حيث يقدم ابن زمنه وتاريخه.

● وكونراد ماير لم يسع الى اخفاء هذا، إذ نجده يقول في صدد روايته هذه، حين ثار نقاش حاد من حولها، زمن صدورها (حوالى العام ١٨٧٩): «إنني في الحقيقة أستخدم هنا شكل الرواية التاريخية القصيرة، بكل بساطة، من اجل التعبير عن افكاري وعن مشاعري الشخصية الخاصة». ومن هنا فإن توماس بيكيت لا يعود، تحت قلم ماير، سوى مادة يشتغل عليها لتقديم افكار شديدة المعاصرة، ترتبط بعنصر الذات والأفكار الشخصية الذي كان عنصراً اساسياً من عناصر الإبداع والفكر عند نهاية القرن التاسع عشر، أي زمن كتابة الرواية، لا زمن احداثها التاريخية.

● من الواضح ان ما أراد كونراد ماير ان يقوله في هذه الرواية – وهو شيء يؤكده كاتبو سيرته على اي حال – انما هو موقفه المكتئب إزاء زمنه وأفكار زمنه ونوع البطولات التي كانت سائدة فيه. فهو كان في ذلك الحين بالذات، قلقاً وغير مرتاح الى اي وضع من الأوضاع. لذلك كان – وبحسب تصريحاته الشخصية – يلجأ الى التاريخ وكتابة التاريخ كنوع من المهرب. وينظر الى احداث التاريخ، ليس في واقعها وحقيقتها، بل فقط عبر مرشح الذات ونافذة العواطف الشخصية... ومن هنا كان من الواضح ان توماس بيكيت في رواية «القديس» لا يشبه الشخصية التاريخية الحقيقية، بقدر ما يشبه ماير نفسه. ومع هذا، على رغم ان هذا التوجه سيسود فن كتابة الروايات التاريخية بعد ماير بزمن معطياً ماير كل المبررات التي تفسر اختياره هذا، فإن باحثين كثراً يرون ان الرجل كان، بعد كل شيء، كاتباً مرتبطاً بزمنه، اي بزمن الواقعية، وأن رواية «القديس» مهما كان الطابع الذاتي طاغياً فيها، تظل واقعية الكتابة، واقعية اللغة والأجواء، تظل عملاً عن توماس بيكيت لا يمكن هذا الأخير ان يستنكره لو بعث الى الحياة وقرأه.

● وكونراد فرديناند ماير، الكاتب السويسري – الألماني، الذي عاش بين ١٨٢٥ و١٨٩٨، كان معروفاً بوقوفه عند النقطة الجامعة بين ثلاث ثقافات ولغات: الألمانية والإيطالية والفرنسية، وقد اتسمت حياته – وكتاباته بالتالي – بقدر كبير من التشاؤم والقدرية، لكنه من الناحية السياسية كان مناصر البسمارك مؤمناً بقوته كزعيم. وكان ماير شاعراً ومفكراً اخلاقياً، غير انه – في افضل حالاته – جعل الشعر والأخلاق جزءاً من الكتابة التي اشتهر بها اكثر من غيرها: الروايات التاريخية التي تبدى في بعضها متأثراً بمؤرخ عصر النهضة مواطنه الكبير يعقوب بوركهاردت. ومن اشهر روايات ماير: «ثورة في الجبل» و«إغواء بسكارا»...

ابراهيم العريس

يوم اغتيل بيكيت في لوحة انكليزية من القرن السادس عشر.